



جامعة الشهيد حماد بن بوعصب - الوادي
كلية العلوم الإسلامية



بالتعاون مع : مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان - تونس

الدوة العلمية الدولية :

سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي

التنمية الاجتماعية والثقافية

الأربعاء والخميس : 30 و 31 أكتوبر 2024م

منهج التخلية والتحلية للتنمية الثقافية

في استراتيجية النهوض الحضاري في فكر مالك بن نبي

د. عبد الله لعربي

المدرسة العليا للأساتذة بالقبة (الجزائر)

dr.abdallah.laribi@gmail.com

الملخص: كرس مالك بن نبي حياته كلها في دراسة مشكلات الحضارة، وإيجاد الحلول لها، من أجل النهوض بالأمة الإسلامية من كبوتها، وادخالها في دورة حضارية جديدة، تستأنف بها خيريتها وشهادتها على الناس. وتتمحور استراتيجيته في النهوض الحضاري أساسا حول صناعة الرجال الذين يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى. وتعتبر التنمية الثقافية من أهم الوسائل التربوية لديه في تحقيق هذه الصناعة، والتعافي من التقهقر الحضاري المزمن للأمة.

تهدف هذه الورقة البحثية الى بيان محورية التنمية الثقافية في النهوض الحضاري، وتبسيط الضوء على ماهية منهج مالك بن نبي المركب الذي درس به مشكلات الحضارة، وموقع منهج التخلية والتحلية فيه، وبيان كيف سلك النبي ﷺ هذا المنهج في الارتقاء بإنسان البداوة الى إنسان الحضارة، وكيف وظف مالك بن نبي هذا المنهج في التنمية الثقافية، في بناء إنسان النهضة الذي خرج من حلبة التاريخ، فاقتدا الكثير من مناعته الحضارية، وما هي الامراض الثقافية والحضارية التي يجب عليه أن يتخلى عنها؟ وما هي عناصر الثقافة الحضارية، الدافعة للنهوض الحضاري المنشود، التي ينبغي له التحلي بها؟

الكلمات المفتاحية: التخلية والتحلية، التنمية الثقافية، المنهج المركب، النهوض الحضاري، مالك بن نبي

**The emptying and filling approach to cultural development in the strategy of
civilizational advancement in the thought of Malek Bennabi
Dr. Abdullah Laribi**

Abstract: Malek Bennabi dedicated his entire life to studying the problems of civilization and finding solutions to them, aiming to lift the Muslim Ummah from its downturn and usher it into a new civilizational cycle, thereby restoring its excellence and testimony to humanity. His strategy for civilizational renaissance primarily revolves around the creation of individuals who walk through history, utilizing soil, time, and talents to build their grand objectives. Cultural development is considered one of the most important educational means for achieving this endeavor and recovering from the chronic civilizational decline of the Ummah.

This research paper aims to highlight the centrality of cultural development in civilizational renaissance and shed light on the composite methodology of Bennabi in studying civilizational problems, the position of the approach of emptying and filling within it, and explain how Bennabi employed this approach in elevating the sedentary man to a civilized man. Furthermore, it explores how Bennabi applied this method in cultural development to build the man of renaissance who had exited the arena of history, losing much of his civilizational immunity. The paper also identifies the cultural and civilizational diseases that need to be eliminated and the elements of civilizational culture that drive the desired civilizational renaissance, which should be adopted.

Keywords: Emptying and filling, Cultural Development, Composite Methodology, Civilizational Renaissance, Malek Bennabi

مقدمة

يحتل الإنسان، في استراتيجية النهوض الحضاري لدى مالك بن نبي رحمه الله، مكانا مركزيا، لأنه "إذا تحرك الإنسان تحرك التاريخ"، ولذلك فهو يولي عناية خاصة بإنسان ما بعد الموحدين، الذي خرج من حلبة التاريخ، وكيف السبيل الى النهوض به، ليدخل في دورة حضارية جديدة.

وعليه، تناول مالك بن نبي مشكلة الإنسان من زواياها المختلفة النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وركز بشكل ملحوظ على المسألة الثقافية، باعتبارها المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري.

وتعمق في دراسة مشكلة الثقافة من مداخل عدة منها: الثقافة وعلم الاجتماع، معنى الثقافة في التاريخ، ومعناها في التربية، توجيه الثقافة، الثقافة والنهضة، الأزمة الثقافية، مسألة تعايش الثقافات، وغيرها من المسائل.

وحظيت المسألة الثقافية عند مالك بن نبي باهتمام الدارسين والباحثين، فأنجزت أطروحات ورسائل جامعية، وألفت كتب، وحررت مقالات ودراسات، وعقدت ندوات وملتقيات، تناولتها من زوايا مختلفة.

وأثناء قراءتي لكتابه الشهير "شروط النهضة"، لاحظت أنه أشار في ثنايا حديثه عن توجيه الثقافة وضرورة تنميتها، إلى مصطلحين هما: "التحديد السلبي" و"التحديد الإيجابي"، لكنني لم أجد، عند الدارسين لفكره، من تساءل هل هناك علاقة بين هذين المصطلحين والتخليية والتحلية؟

ولما كانت التخلية والتحلية منهجا للنبي ﷺ في تربية أصحابه الكرام، تساءلت هل وظف مالك بن نبي هذا المنهج في مشروعه النهضوي؟ وفي أي سياق وظفه؟ ولماذا لم يشر الى التخلية والتحلية بصريح العبارة؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها، بينت محورية التنمية الثقافية في النهوض الحضاري، بعد تحديد المفاهيم التالية: التنمية، الثقافة، التنمية الثقافية.

ثم سلطت الضوء على ماهية المنهج المتميز، الذي سلكه مالك بن نبي في دراسة "مشكلات الحضارة" وصناعة إنسان النهضة.

وبسطت القول حول التخلية والتحلية في القرآن الكريم والسنة النبوية، وبيان منهج التخلية والتحلية الذي سلكه النبي ﷺ في تربية أصحابه والارتقاء بهم من البداوة الى الحضارة.

ثم بينت كيف وظف مالك بن نبي هذا المنهج في التنمية الثقافية، من خلال تحليل النصوص الدالة على ذلك، ورصد الأمراض الثقافية والحضارية التي يجب على إنسان ما بعد الموحدين أن يتغلب عليها، وبيان عناصر الثقافة الحضارية الدافعة للنهضة، التي ينبغي له التحلي بها.

كما وضحت لماذا لم يستعمل مالك بن نبي صراحة كلمتي التخلية والتحلية، واستبدلتهما بالتحديد السلبي والتحديد الإيجابي؟

وبينت كذلك السياقات المختلفة، التي ميزت توظيف منهج التخلية والتحلية عند النبي ﷺ، ومالك بن نبي رحمه الله.

ثم ختمت، هذه الورقة البحثية، بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها.

أولا-محورية التنمية الثقافية في النهوض الحضاري

يمثل الإنسان العنصر الأساس في معادلة مالك بن نبي الشهيرة: الحضارة = الانسان + التراب + الوقت، وأنه " إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ"¹، وعليه فالنهوض الحضاري لا يتم مجددا إلا بحل مشكلة الإنسان من زواياها المختلفة النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

وسأركز على الزاوية الثقافية، وبيان أهمية التنمية الثقافية، ودورها المحوري في النهوض الحضاري. وقبل ذلك أعرف وأبين المقصود من التنمية، والثقافة، والتنمية الثقافية.

1-التنمية

التنمية مصطلح حديث النشأة، بدأ استخدامه خلال الأربعينيات من القرن الماضي، مع ظهور كتلة الدول المتقدمة، وفي مقابلها الدول المتخلفة، حيث كان يشير الى الإجراءات والتدابير التي يمكن أن تتخذها هذه الأخيرة، للخروج من حالة التخلف الاقتصادي، وكان ذلك انطلاقا من نظرية النمو لدى فرانسوا بيروكس

¹ مالك بن نبي، حديث غي البناء الجديد، المكتبة العصرية، د.ت، ص 50

François Perroux، ثمّ نظرية التنمية الاقتصادية، ثم الاجتماعية، ثم الشاملة الى المستدامة.

- التنمية لغة: تعرّف كلمة التنمية في اللغة على أنّها تشير للزيادة والرفع، فهي مشتقة من المصدر نَمَى، فيقال: فلان نَمَى ذاكرته؛ أي طوّرها وزاد من قوتها، ويقال: تنمية المحاصيل والانتاج الزراعي، أي تكثيره وزيادته.¹

- التنمية اصطلاحاً: لها تعاريف عديدة ومختلفة، ويرجع هذا لاختلاف "الى تباين المشارب والموارد العلمية والمنطلقات الأكاديمية والفلسفية." ²

وعرّفت هيئة الأمم المتحدة عام 1956 التنمية بأنّها: " العمليات التي يمكن بها توحيد جهود المواطنين والحكومة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمعات المحلية، ومساعدتها على الاندماج في حياة الأمة والمساهمة في تقدمها بأقصى قدر مستطاع." ³

-أنواع التنمية: بناء على تعريف التنمية بأنها عملية تستهدف تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية لأفراد المجتمع، وباعتبارها تقتضي تحريك مختلف العوامل وتشمل جميع مجالات الحياة، فهي تمس كل مجال له علاقة بتحسين حياة الفرد والمجتمع.

وعليه، فالتنمية الشاملة تشمل جميع مجالات الحياة والعوامل المؤثرة فيها، فهي متعددة ومتنوعة، منها: التنمية الاقتصادية، التنمية السياسية، التنمية الاجتماعية، التنمية البشرية، التنمية الفكرية، التنمية الثقافية، التنمية العلمية، التنمية الروحية، التنمية النفسية، التنمية الأخلاقية، والتنمية البيئية. وسأركز على التنمية الثقافية، التي سأحدد مفهومها، بعد تحديد مفهوم الثقافة.

2-الثقافة

-الثقافة لغةً: يرجع أصل كلمة الثقافة، في اللغة العربيّة، الى الفعل الثلاثي "ثقّف" بضمّ القاف وكسرهما، ويراد بها عدة معانٍ منها: الفهم، وسرعة التعلّم، والحدق، والفطنة.

ونقول ثقفت السّيء: حذقته، وثقفته إذا ظفرت به. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا تَنَقَّفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 57] وثقف الرّجل ثقافة أي: صار حاذقاً خفيماً.⁴

-الثقافة اصطلاحاً: للثقافة تعاريف عديدة ومتنوعة، تبعاً لتعدد وتنوع ثقافات الأمم والشعوب، تجاوزت المئة والستين تعريفاً كُتبت باللغة الإنكليزية، وصُنفت وفقاً لاهتمامات واضعها، فمنها الوصفية،

¹ تعريف ومعنى تنمية في معجم المعاني الجامع، almaany.com بتصريف.

² حسن صادق حسن عبد الله، السلوك الإداري ومركزات التنمية في الإسلام، ط 2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1992م، ص 83

³ محمد شفيق، البحث العلمي الخطوات المنهجية لإعداد البحوث الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998م، ص 13.

⁴ ابن منظور، لسان العرب، ج 9، ص 19، بتصريف

والتاريخية، والمعيارية، والنفسية، والبنائية، والتطورية، وغيرها¹

ومن أقدم التعريفات، تعريف إدوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Tylor، القائل بأنها "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع"².

ويُعرف مالك بن نبي الثقافة، بعد انتقاده لمفهومها في المدرستين الغربية والاشتراكية، بأنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"³.

ويوضح بأن "هذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر"⁴.

ويضيف "وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات"⁵.

فالثقافة عند مالك بن نبي، رحمه الله، "هي: المحيط الفكري والسيكولوجي والاجتماعي الذي يكتنف الوجود الإنساني في المجتمع، ويزوده بالخبرة المعرفية والسلوكية... التي تشكل طباعه وشخصيته، وتحكم علاقته بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد"⁶.

3- التنمية الثقافية

إن "التنمية الثقافية مفهوم مبتكر من مفاهيم العمل الاجتماعي في مدلولاته الشاملة التي تتسع لشتى مناشط الحياة الإنسانية، والتي تشمل مختلف مناحي الجهد البشري، اقترن ظهوره بحركة اليقظة الفكرية الحديثة، وتبلور بصورة واضحة، مع تطور رؤية المجتمع الدولي إلى رسالة الثقافة في الحياة، ودورها في بناء المجتمعات المعاصرة، حتى صار هذا المفهوم اليوم، من قواعد تقدم الشعوب، ومن ثوابت السياسات الثقافية والاجتماعية في الدول التي تجعل من التنمية، هدفاً رئيساً من الأهداف الوطنية التي تعمل من

¹ عبد الله العويبي، مالك بن نبي حياته وفكره، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012م، ص 313-314.

² دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: د. منير السعيداني، ط 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007م، ص 30-31.

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 1434هـ/2013م، ص 89

⁴ المرجع نفسه، ص 89

⁵ المرجع نفسه، ص 89-90.

⁶ الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط 1، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر،

2012م، ص 99.

أجل تحقيقها"¹.

"والتنمية الثقافية هي القاعدة المتينة من قواعد التنمية الشاملة المستدامة التي ترتقي بالإنسان، وتبدر الحضارة، وتصنع المستقبل."²

وعليه، فالتنمية الثقافية شرط أساس في الارتقاء بالإنسان، بالرفع من قدراته الى أعلى المستويات، وتحسين أوضاعه، وتفعيل إسهامه في تقدم المجتمع، ليحقق التنمية الشاملة المستدامة، الممهدة للنهضة الحضارية.

والتنمية الثقافية التي أقصدها في هذا البحث، هي: القيام بعملية تخلية ثقافة الفرد والمجتمع، من القيم السلبية المميتة، والتخلية بالقيم الثقافية الحية والفاعلة والدافعة للنهوض الحضاري، لدى الفرد والمجتمع.

أشار مالك بن نبي إلى التنمية الثقافية، بالمفهوم الذي أقصده، أثناء حديثه عن توجيه الثقافة، في "شروط النهضة" على وجه الخصوص، وسأعود لهذه المسألة تفصيلاً في المبحث الرابع.

4- دور التنمية الثقافية في النهضة

بين مالك بن نبي أن مشكلة الإنسان، العنصر الأساس في معادلته الحضارية الشهيرة، هي المعضلة الكبرى، لأن الإنسان هو صانع الحضارات، لذلك "يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى."³

وعليه، فالإنسان، في استراتيجية النهوض الحضاري لديه، يحتل مكاناً مركزياً، لأنه "الجهاز الاجتماعي الأول .. فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ"⁴، ولهذا درس ابن نبي قضايا الإنسان ومشكلاته من زواياها المتعددة: النفسية والاجتماعية والتربوية والثقافية، وحاول إيجاد الحلول لها، حتى يتمكن الإنسان المسلم من استرجاع دوره في تحريك المجتمع والتاريخ، وببني حضارته مجدداً.

ولكي يسترجع المسلم هذا الدور، "يلزمنا أولاً أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ."⁵ ويرى مالك أن الإنسان يؤثر في المجتمع " بثلاث مؤثرات: أولاً: بفكره، ثانياً: بعمله، ثالثاً: بماله."

وفي هذه الدراسة، سأسلط الضوء على المسألة الثقافية، وأهمية تنميتها، لأنها "هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري، على اعتبار أن الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والانفس والهداية والتأييد، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم

¹ عبد العزيز بن عثمان التويجري، التنمية الثقافية من منظور إسلامي، ط 2، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، 1436هـ/2015م، ص 11.

² المرجع نفسه، ص 8.

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 75.

⁴ مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، مرجع سابق، ص 50.

⁵ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 83.

وفعال، يتيح له امتلاك منهج البحث عنها، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الترقى الحضاري المنشود من جهة أخرى.¹

تناول مالك بن نبي المسألة الثقافية في العديد من مؤلفاته، تطرق إليها بداية في "شروط النهضة"، ثم عاد إليها تفصيلاً، وأفرد لها كتاباً سماه "مشكلة الثقافة"، ولا تخلو مؤلفاته ومحاضراته من الإشارة إليها، تصريحاً أو تلميحاً، لأن الثقافة عنده "هي الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته ويحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار العامة."²، وهي المؤثر الأكبر في حياة الإنسان والمجتمع، والمحرك الفعال لعجلة النهضة.

ثانياً- منهج مالك بن نبي في دراسة مشكلات الحضارة

لقد كان مالك بن نبي مسكوناً بالبحث عن كيفية الدخول بالأمة الإسلامية في دورة حضارية جديدة، كما صرح هو بنفسه حين كتب: "إنّ المشكلات التي يواجهها العالم الإسلامي مشكلة الحضارة من طرفين، كيف تدخل الشعوب العذراء في دورة حضارية جديدة، وكيف تعود الشعوب الإسلامية التي خرجت من حلبة التاريخ لدورة حضارية جديدة. إذا سلّمنا بهذه الحقائق يبقى علينا أن نفكر في مصير العالم الإسلامي، كيف يمكن لنا الدخول في دورة حضارية جديدة، هذه القضية باختصار هي التي وجّهت لها كل مجهوداتي المتواضعة منذ ثلاثين سنة."³

ولإعداد مشروع حضاري متكامل تتحقق به الغاية المنشودة، كان لزاماً عليه أن يغوص في أعماق التاريخ، ليدرس أسباب نهوض وسقوط الحضارات، ويستنبط منها القوانين السننية الناظمة لها، ويعالج سائر "مشكلات الحضارة"، فاستخدم من أجل ذلك منهجاً متميزاً، شدّ انتباه الدارسين لفكره.

فكتب أحدهم، وهو المفكر محمد شاويش: "وفي اعتقادي أننا الآن بحاجة إلى قراءة أفكار هذا المفكر الهادئ والتعلم منه، لا أعني بالضرورة أن نقره على كل تفاصيل تحليلاته، ولكن يجب أن نستخلص ما هو قيم حقاً، في فكر بن نبي وهو طريقته [منهجه] في رؤية مشكلة الحضارة الإسلامية، وتحليلها، ورؤيته الجوانب التي يلفت انتباهنا، إلى ضرورة التركيز عليها."⁴

وعبّر الأستاذ الدكتور محمد سعيد مولاي، أحد تلاميذ مالك بن نبي، عن إعجابه بمنهجه بقوله: "يعتبر مالك بن نبي من أوائل المحدثين في معالجة مشكلات الحضارة، بمنهجية علمية دقيقة."⁵

وإذا كان سؤال المنهج هو السؤال الأساس في أي عمل فكري، فما هي سمات هذا المنهج المتميز الذي شدّ انتباه الدارسين لإنتاجه الفكري؟

إن المنهج المتميز، الذي تناول به مالك بن نبي "مشكلات الحضارة" وصناعة إنسان النهضة، في تقديري،

¹ الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 97.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 93.

³ مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري، ط 2، دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2016م، ص 250.

⁴ محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، ط 1، دار الفكر، دمشق-سوريا، 1428هـ/2007م، ص 24.

⁵ نور الدين مسعودان، مالك بن نبي حياته وأثاره وشهادات ومواقف، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، ص 59.

هو "منهج مركب بمقاربات متعددة التخصصات"، وظف فيه مناهج البحث العلمي المعروفة، كالمناهج التاريخية، و النفسية، والتحليلي، والوصفي، والمقارن، والتجريبي، بالإضافة إلى المنهج السنني، ومنهج التخليّة والتحلية، وذلك بمقاربات من العلوم الإسلامية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والعلوم الأساسية، وعلوم المادة والحياة، وغيرها من العلوم المساعدة على دراسة الحضارة ومعالجة مشكلاتها، بأسلوب متميز، جمع فيه بين النظرة السننية الشاملة، والدقة العلمية، والعمق الفلسفي، والواقعية والموضوعية.¹

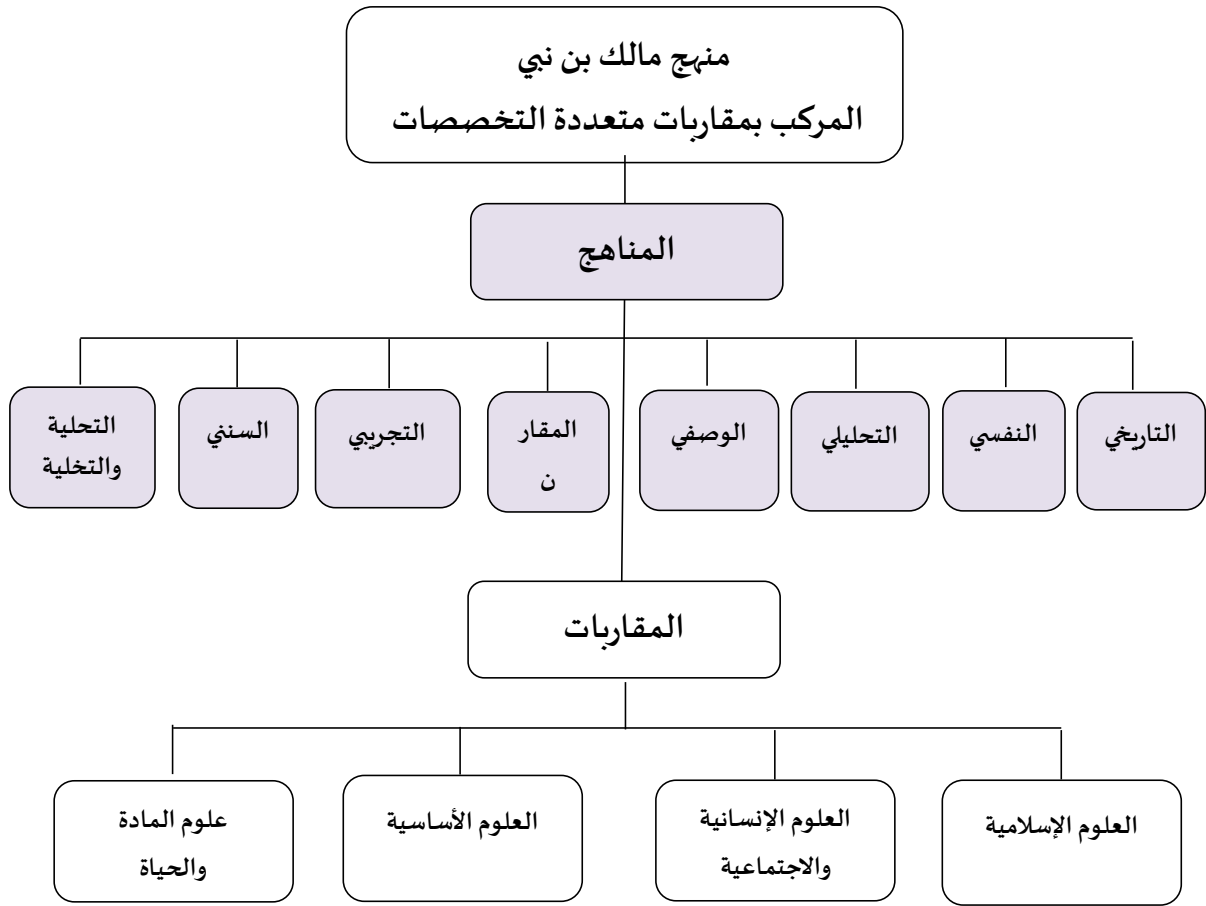
وكما يقال، فإن الموضوع هو الذي يفرض المنهج اللائق به، فموضوع الحضارة موضوع واسع باتساع وتعدد مجالاته، فهو يشمل "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه".²، وهذا لا يتم إلا بالارتقاء إلى مستوى معين من الثقافة والتربية والعلوم والفنون والعمران وإدارة الحياة، وغيرها.

كما أن صناعة إنسان النهضة لا تتم إلا من خلال القضاء على أمراض الإنسان الذي خرج من الحضارة، كحال المسلم اليوم، وغرس القيم الحضارية فيه، وذلك بإعداده جسميا وروحيا وعقليا ووجدانيا، بالشكل المطلوب، حتى يستعيد مكانته ودوره ورسالته في الحياة.

وهكذا، وبالنظر إلى طبيعة "مشكلات الحضارة"، ومتطلبات صناعة إنسان النهضة في أبعاده الرباعية، السالفة الذكر، فإن "المنهج المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات"³(الشكل 1)، هو الأنسب والملائم توصيفا وتحليلا ومقاربة وعلاجاً.

¹ عبدالله لعربي، مالك بن نبي .. المفكر الرسالي، ورقة بحثية شارك بها صاحبها في الملتقى الدولي الموسوم "فكر مالك بن نبي.. بين مظاهر الجمود وآليات التفعيل"، يومي 28 و29 نوفمبر 2017، جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي، الجزائر. -بتصرف.
² مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 2013، ص 43.

³ للمزيد من التفاصيل حول هذا المنهج ومبرراته، ينظر في مداخلتنا الموسومة: منهج مالك بن نبي في دراسة مشكلات الحضارة وعلاقته بمنظور السننية الشاملة، ملتقى وطني حول الدراسات السننية - في الفكر الإسلامي المعاصر، جامعة الحاج لخضر باتنة 1، يوم 22 نوفمبر 2023م



الشكل 1-منهج مالك بن نبي المركب بمقاربات متعددة التخصصات

وفي إطار استراتيجيته في بناء إنسان النهضة، وظف مالك بن نبي، كما سبق ذكره، عدة مناهج، منها: منهج التحليلية والتخليية في مجال التنمية الثقافية.

وقبل أن أبين كيف وظف مالك بن نبي هذا المنهج في التنمية الثقافية، من أجل الارتقاء بالمسلم من إنسان ما بعد الموحدين إلى إنسان النهضة، نتعرف على هذا المنهج من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، ونوضح كيف سلكه النبي ﷺ من أجل الارتقاء بإنسان البداوة إلى إنسان الحضارة.

ثالثا- التحليلية والتخليية في القرآن الكريم والسنة النبوية

1-التركيبية لغة

هي مصدر: زكى يزكي زكاة وهي الطهارة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، أو هي مصدر: زكا يزكو زكاء وزكاة،

وهي الزيادة والنماء. ومنه قول الامام علي رضي الله عنه: "والعلم يزكو بالإنفاق" أي يزيد.

2-التزكية اصطلاحا

لها عدة تعاريف متنوعة ومتكاملة، منها: "عملية تطهير وتنمية شاملين، هدفها استبعاد العناصر الموهنة للإنسانية الإنسان وما ينتج عن هذا الوهن من فساد وتخلف وخسران، وتنمية كاملة للعناصر المحققة لإنسانية الإنسان وما ينتج عن هذه التنمية من صلاح وتقدم وفلاح في حياة الأفراد والجماعات"¹.

3-التزكية في القرآن الكريم

وردت كلمة "زكى" ومشتقاتها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، تزيد على الخمسين موضعا²، وبعده معان، منها: الصلاح، والنماء والزيادة، والمدح والبراءة من الذنوب، وأداء الزكاة، وغيرها.

وخلاصتها أنها تخلية وتحلية: تخلية من الرذائل، وتحلية بالفضائل، وفيها تطهير ونماء، كما يقول الله عز وجل: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [سورة التوبة: 103]، والتطهير هو تخلية النفس من الذنوب والمعصية والتزكية فيها نماء³.

والتزكية التي أقصدها هي: عملية تخلية النفس الإنسانية من الرذائل والنواقص من فساد وتخلف وانحطاط، وتحليتها بغرس وتنمية الفضائل والقيم من الصلاح والفعالية والتقدم، الدافعة للهوض الحضاري المنشود.

4-التخلية والتحلية في السنة النبوية

التزكية هي إحدى المهمات الكبرى التي كلف بها الرسول ﷺ لإخراج الإنسان من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2]،

يقول العلامة أبو الحسن الندوي رحمه الله: "وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم"⁴.

ولتحقيق هذه التزكية سلك النبي ﷺ منهج التخلية والتحلية، كما أشار إلى ذلك الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بقوله: "كان رسول الله يفرغنا ثم يملؤنا".

¹ ماجد عرسان الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها، ط1، عالم الكتب، بيروت-لبنان، 1416هـ-1995م، ص 127

² طه عابدين وآخرون، التزكية بالقرآن الكريم: مفهومها، وأهميتها، وأركانها، ط1، معالم الهدى للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية، 1439هـ-2017م، ص 9.

³ عصام البشير، كيف يمكن للإنسان تزكية نفسه وتطهيرها؟ قناة الجزيرة، برنامج "الشريعة والحياة"، حلقة يوم 2023/3/24.

⁴ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ربانية لا رهبانية، ط1، دار القلم دمشق، 1421هـ-2000م، ص 15

ومنهج التخلية والتحلية، عند النبي ﷺ، ليس منهجا قائما على مجرد الأمر والنهي، أي لا تفعل وافعل، تخلى وتحلى، إنه منهج متكامل تتعدد فيه أساليب وطرق التربية والتوجيه والنصح والتعليم، مع مراعاة الحال والزمن والمكان.

رصد العلامة عبد الفتاح أبو غدة أربعين أسلوبا من أساليبه ﷺ في تعليم الصحابة، منها: السيرة الحسنة والخلق الفاضل، التدرج في تعليم الشرائع، الاعتدال والبعد عن الإملال، مراعاة الفروق الفردية بين الناس، الحوار والمساءلة، المحادثة والموازنة العقلية، المقايسة والتمثيل، ضرب الأمثال، الاستعانة بالوسائل التوضيحية كالرسم، السكوت والاقرار، الممازحة والمداعبة، تكرار النصيحة، اجمال الأمر ثم تفصيله، القصص وأخبار الماضين، الترغيب والترهيب وغيرها.¹

لقد استطاع النبي ﷺ، بمنهج التخلية والتحلية، بمختلف أساليبه وطرقه، أن يخرج أصحابه الكرام من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، كما شهد بذلك الصحابي الجليل ربي بن عامر التميمي.

كما تمكن ﷺ من نقل العرب من البداوة إلى الحضارة، أو "من أمة جهالة إلى أمة متحضرة"²، على حد تعبير المؤرخ والمفكر الإنكليزي الشهير آرنولد توينبي Arnold Toynbee، بسطت حضارتها على أجزاء كبيرة من المعمورة، ولعدة قرون.

رابعا-كيف وظف مالك بن نبي منهج التخلية والتحلية في التنمية الثقافية

أشار مالك بن نبي إلى التنمية الثقافية في ثنايا حديثه عن توجيه الثقافة، في "شروط النهضة"، عندما عرف الثقافة "باعتبار وظيفتها في صورة منهاج تربوي، يمكن من تحقيقها عمليا عن طريق تركيب عناصرها بصورة فنية، وهذا تحديد للثقافة بصورة إيجابية يجب أن يسبقه تحديد سلبي بالنظر إلى الواقع الاجتماعي."³

فما المقصود هنا بالتحديد السلبي والتحديد الإيجابي؟

وهل المقصود بهما هو التخلية والتحلية؟

للإجابة عن هذه التساؤلات لا بد من بيان موقع التخلية والتحلية عند مالك بن نبي، وهل أشار إليهما صراحة أم تلميحا؟

1-موقع التخلية والتحلية في "شروط النهضة"

حين تناول مالك بن نبي، في كتابه "شروط النهضة"، الحديث عن مشكلة الإنسان باعتباره العنصر الأول والأهم من عناصر معادلاته الحضارية الشهيرة، نبّه إلى أن "المشاكل التي تحيط بالإنسان تختلف باختلاف بيئته، فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة، تبعاً لتنوع مراحل التاريخ"⁴.

¹ عبد الفتاح أبو غدة، الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم، ط 1، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب-سوريا، 1417 هـ/1996م.

² آرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي لترجمة، القاهرة، 2011م، الجزء 1، ص 381.

³ عبد الله العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2012، ص 344.

⁴ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 81

وعليه، " فلا يمكن لنا أن نقارن في الوقت الحاضر بين رجل أوروبا المستعمر، ورجل العالم الإسلامي القابل للاستعمار، لأن كليهما في طور تاريخي خاص به"¹.

وبعدما عقد مقارنة بين طبيعة المشاكل التي يعاني منها الإنسان الأوروبي والإنسان في العالم الإسلامي، وبيان أن المشكلتين مختلفتين في أساسهما، خلص إلى القول بأن " من الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها، وبخاصة في الجزائر"²، ومن هنا يقرر بأنه " يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"³.

وصناعة هؤلاء الرجال، ليس بالأمر السهل، ولا البسيط، فكيف السبيل إلى ذلك؟ وبأي منهج؟ وقبل تحديد المنهج الأنسب لبداية هذه الصناعة، لا بد من معرفة هل هناك فرق بين الإنسان الذي لم يدخل الحضارة بعد، والإنسان الذي خرج منها؟ وهل يمكن للأخير الدخول فيها مجدداً وكيف ذلك؟ يرى بن نبي أنه " قبل بدء دورة من الدورات [الحضارية] أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضارياً وسلبت منه الحضارة تماماً. فيدخل في عهد ما بعد الحضارة"⁴.

ثم يقول: " فإذا كان ممكناً المماثلة بين هاتين الحالتين من وجهة نظر سطحية لما فهمنا من وجه الشبه الظاهرية. فإنه من الخطأ المماثلة بينهما من وجهة بيولوجية-تاريخية: إذ الإنسان الذي تفسخ حضارياً مخالف تماماً للإنسان السابق على الحضارة أو الإنسان الفطري"⁵.

ويستطرد قائلاً: " فالأول ليس مجرد إنسان خارج عن الحضارة فحسب-كما هي الحال مع الثاني الذي سميناه فيما سلف ب(الإنسان الطبيعي)، إذ الإنسان المسلوب الحضارة لم يعد قابلاً لإنجاز (عمل مُحَضَّر Euvre civilisatrice) إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية. وعلى العكس من ذلك، فإن الإنسان السابق على الحضارة يظل مستعداً-كما هي الحال مع البدوي المعاصر للنبي-للدخول في دورة الحضارة"⁶.

يبين لنا بن نبي، فيما سبق ذكره، الفرق بين صورة الإنسان قبل دخوله في دورة حضارية وبعد خروجه منها، وأشار كذلك إلى إمكانية الدخول فيها مجدداً بالنسبة للإنسان المسلوب الحضارة الذي لم يعد قابلاً لإنجاز (عمل مُحَضَّر) إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية.

وصورة الإنسان المسلوب الحضارة، أو إنسان ما بعد الحضارة، تنطبق تماماً على إنسان المجتمع الإسلامي، أو إنسان ما بعد الموحدين، وبالتالي فهذا الأخير لا يمكنه الدخول في دورة حضارية جديدة، إلا إذا غير نفسه تغييراً جذرياً يستجيب لمقتضيات ذلك التغيير.

¹ المرجع نفسه، ص 81

² المرجع نفسه، ص 82

³ المرجع نفسه، ص 82

⁴ المرجع نفسه، ص 78

⁵ المرجع نفسه، ص 78

⁶ المرجع نفسه، ص 78

سيوضح لنا، فيما يلي، ما هو المنهج الذي اعتمده ابن نبي في بداية صناعة إنسان النهضة، وهل لهذا المنهج من علاقة مع منهج التخليية والتحلية، الذي سلكه المصطفى ﷺ، في صناعة الرعييل الأول؟ وعن بداية الطريق نحو الحضارة يقول: "وإنه ليحب بادئ الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدينا، وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة، ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة. وإن هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة".

نلاحظ هنا أمرين اثنين:

- الأول أن كلمة تصفية، التي تعني هنا التنقية، تشير بوضوح إلى معنى التخليية.
- الثاني هو أهمية البدء بها "حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة" تمهيدا "لوضع جديد، هو وضع النهضة".

ويضيف ابن نبي: "ونخلص من ذلك إلى ضرورة تحديد الأوضاع بطريقتين:
الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي.

والثانية: إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل"¹.

وهكذا يُبين لنا أن وضع النهضة الجديد، لا يُبنى إلا بفكر جديد، ولا يتأتى ذلك إلا بتحديدين:

- الأول: (التحديد السلبي) الذي يمثل الانفصال عن رواسب الماضي السلبية الممثلة في الأنساق الثقافية والاجتماعية العائقة لكل نهضة.

- الثاني: (التحديد الإيجابي) الذي يمثل الاتصال بمقتضيات المستقبل الإيجابية اللازمة لكل نهضة حضارية.

والانفصال والاتصال بهذا المعنى، وفي هذا السياق ما هما إلا التخليية والتحلية في مجال التنمية الثقافية بتعبير آخر ليس إلا!

وقد يسأل سائل هنا: هل الثقافة الغربية عرفت في وقت ما التحديد السلبي (الانفصال) والتحديد الإيجابي (الاتصال) أو بتعبير آخر منهج التخليية والتحلية بشكل من الأشكال؟

يجيبنا ابن نبي عن هذا التساؤل بقوله: "ولعل هذه النظرية [أي التحديد السلبي والتحديد الإيجابي أو الانفصال والاتصال] قد لوحظ أثرها في الثقافة الغربية في عهد نهضتنا، إذ كان توماس الأكويني ينقها-ولو عن غير قصد منه- لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية. وما كانت ثورته ضد ابن رشد، وضد القديس أوغسطين، إلا مظهراً للتحديد السلبي، حتى يستطيع تصفية ثقافته مما كان يراه فكرة إسلامية أو ميراثا ميتافيزيقياً للكنيسة البيزنطية."²

ويضيف: "وأتى بعده ديكرت بالتحديد الإيجابي، الذي رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي، الذي يبي

¹ المرجع نفسه، ص 86

² المرجع نفسه، ص 86

على المنهج التجريبي ذلك الطريق، الذي هو في الواقع السبب المباشر لتقدم المدنية الحديثة تقدمها المادي.¹

نلاحظ هنا أن التحديد السلبي والتحديد الإيجابي أو الانفصال والاتصال، في الثقافة الغربية، لم يتما في نفس الوقت، فتوماس الأكويني قام أولاً بعملية الانفصال (التحديد السلبي) حين حاول تنقية ثقافته من التأثيرات الإسلامية عليها، بينما قام ديكرت فيما بعد بعملية الاتصال (التحديد الإيجابي) حين رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي القائم على المنهج التجريبي.

أما فيما يخص الحضارة الإسلامية يقول ابن نبي: "والحضارة الإسلامية نفسها قامت بعملية التحديد هذه من ناحيتها السلبية والإيجابية، إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بهذين التحديدين مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم، الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل، بطريقة ايجابية"².

فهذا النص يشير إلى أن التحديدين السلبي والايجابي، اللذين جاءت بهما الحضارة الإسلامية في نفس الوقت، وأن مصدرهما القرآن الكريم، يدل دلالة واضحة على أن التحديد السلبي (الانفصال) والتحديد الإيجابي (الاتصال) ما هما سوى التخلية والتخلية، أي التخلية عن الأفكار الجاهلية البالية، والتخلية بالفكرة الإسلامية الصافية، بكل وضوح لا لبس فيه!

ونظراً لأهمية وضرورة التخلية والتخلية في التنمية الثقافية للمسلم اليوم، يذهب ابن نبي إلى إلزامية هذا المنهج لتحقيق النهضة الإسلامية، حين أردف قائلاً: "وهذا العمل نفسه لازم لليوم للنهضة الإسلامية"³. ويضيف: "ولعل هذه المسألة قد أصبحت منذ زمن قريب موضع بحث وتأمل، وإننا لنجد فعلاً في روح الإصلاح التي هبت على العالم الإسلامي منذ محمد عبده وتلامذته كابن باديس، بشائر ذلك التحديد السلبي الذي حاولوا فيه تحطيم عللنا وعوامل انحطاطنا (...). وأما التحديد الإيجابي فإننا، وإن كان قد وضح لنا مجمله، إلا أنه لا يزال غامضاً غير محدد."⁴

ويلاحظ ابن نبي أن التحديد السلبي (التخلية) بدأ يُثمر ويؤتي أكله على يد الحركة الإصلاحية، أما التحديد الإيجابي (التخلية) فلا يزال غامضاً رغم وضوحه في مجمله.

ثم يبادر ابن نبي إلى بيان المقصود من التحديد الإيجابي (التخلية)، رفعا لهذا الغموض، فيقول: "فليس المقصود هنا من التحديد الإيجابي وضع منهاج جديد للتفكير فإن ديكرت قد وضعه بصورة لا نتوهم تغييرها، إلا بانقلاب علمي هائل، لا تحتمله الظروف الآن. وإنما المقصود تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي نراها لازمة تماماً للثقافة وهي:

1-الدستور الخلفي.

¹ المرجع نفسه، ص 86-87

² المرجع نفسه، ص 87

³ المرجع نفسه، ص 87

⁴ المرجع نفسه، ص 87

2- الذوق الجمالي.

3- المنطق العملي.

4- الصناعة بتعبير ابن خلدون أي (Technique) ¹.

قد يسأل سائل لماذا اهتم ابن نبي بمسألة التحديد الإيجابي (التحلية) على وجه الخصوص، وفي مجال الثقافة بالذات؟

والجواب، في تقديري، هو أن التحديد الإيجابي (التحلية) ما زال غامضا ويحتاج إلى مزيد من الوضوح، كما ذكره ابن نبي أنفا.

أما لماذا مجال الثقافة بالذات؟ فلكونها، في نظره، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحضارة، ومع " هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة" ²

وما دام الدخول في دورة حضارية جديدة لا يتم إلا بصناعة إنسان النهضة، بات لزاما الاهتمام بهذه الصناعة، التي ستغير الإنسان تغييرا جذريا ينقله من إنسان ما بعد الموحدين إلى إنسان النهضة، بتنمية الثقافة، باعتبارها نظرية في السلوك، وبمنهج التخلية والتحلية، المستمد من القرآن الكريم، والذي سار على هديه المصطفى ﷺ، في الارتقاء بإنسان البداوة إلى إنسان الحضارة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المتغير في منهج التخلية والتحلية هو حال الإنسان، أي حاله الذي هو عليه وحاله الجديد الذي نريد أن يصل إليه، بمعنى آخر أن المتغير يكمن في طبيعة المدخلات (In put) والمخرجات (Out put).

ففي عهد النبي ﷺ، المدخلات هي إنسان البداوة، والمخرجات هي إنسان الحضارة، والنموذج هو منهج التخلية والتحلية، بطرقه المناسبة، التي بيّنا بعضها فيما سبق، والممثل على النحو الآتي:

إنسان البداوة (In put) ← التخلية والتحلية (Model) ← إنسان الحضارة (Out put)

أما عند ابن نبي، المدخلات هي: إنسان ما بعد الموحدين، والمخرجات هي إنسان النهضة، والنموذج هو منهج التخلية والتحلية، بطرقه الخاصة والمناسبة له، التي سنبينها فيما بعد، من خلال التخلية الحضارية والتحلية الحضارية، والممثل على النحو الآتي:

إنسان ما بعد الموحدين (In put) ← التخلية والتحلية (Model) ← إنسان النهضة (Out put)

ومما سبق ذكره، يتبين لنا بوضوح المعنى المقصود من التحديد السلبي والتحديد الإيجابي، وأنه لا يختلف عن معنى التخلية والتحلية.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يستعمل ابن نبي كلمتي التخلية والتحلية، واستعمل عبارتي التحديد السلبي والتحديد الإيجابي؟ علما أنه ذو ثقافة إسلامية معتبرة، وله معرفة جيدة بالقرآن الكريم، تجلت في كتابه الشهير "الظاهرة القرآنية"، وأن مترجم كتابه "شروط النهضة" من الفرنسية إلى العربية، الدكتور عبد

¹ المرجع نفسه، ص 87-88

² المرجع نفسه، ص 87-88

الصبور شاهين له باع طويل في العلوم الإسلامية والعربية؟

في الحقيقة لم أعثر، لحد الآن، على جواب صريح أو تلميح واضح لهذا التساؤل الوجيه، في قراءاتي للإنتاج الفكري لمالك بن نبي، أو فيما كتبه عنه غيره.

والجواب لهذا التساؤل، في تقديري، يكمن في الاعتبارات التالية:

- أن كلمتي التخلية والتحلية، رغم أنهما من صميم التوجيهات القرآنية لتزكية النفس، ومنهج النبي ﷺ في تربية أصحابه الكرام، لم تكن مألوفة آنذاك في خطابات ومؤلفات المفكرين والمصلحين، لكنهما شائعتان في أوساط الطرق الصوفية.

- إن سقف البرنامج الروحي والتربوي للطرق الصوفية لا يتجاوز تزكية النفس من أدائها، وهذا مقصد بلا شك في غاية الأهمية، لكنه سقف دون السقف الذي يرمي إليه ابن نبي في مشروعه الحضاري، الذي يهدف إلى ادخال الأمة الإسلامية في دورة حضارية جديدة.

- إن دائرة اهتمام الطرق الصوفية هي دائرة الصلاح، بينما دائرة اهتمام ابن نبي هي دائرة أوسع تشمل الإصلاح القائم على الصلاح.

- إن بعض الطرق الصوفية، في عهد ابن نبي، وفي زمن الاستعمار الفرنسي للجزائر، عشعشت فيها البدع والخرافات، وسادت فيها الدروشة، ورضي شيوخها ومريدوهم بالتعايش مع الاستعمار، باعتباره قدرا مقدورا، وتواطؤوا معه أحيانا في بسط نفوذه على الشعب، ونهب ثرواته، وتكريس مفهوم "القابلية للاستعمار" في النفوس، ذلك المعيق الأكبر لتحرير البلاد والعباد.

وهكذا يبدو لي أن ملك ابن نبي استلهم روح التخلية والتحلية، باعتبارهما توجيهات قرآنية ومنهج نبوي، في تغيير ما بالنفس، والارتقاء بها في مدارج الصلاح والإصلاح، وتجنب استعمال كلمتي التخلية والتحلية، واستبدالهما بمصطلحي التحديد السلبي والتحديد الإيجابي، اللذين يحققان المراد منهما في التنمية الثقافية، التي هي أساس النهوض الحضاري.

2- منهج التخلية والتحلية في التنمية الثقافية

يرى مالك بن نبي أن حال العالم الإسلامي، الذي عاصره، كحال المسلمين في مرحلة ما بعد الموحدين، الذين خرجوا من الحضارة، ولا يمكنهم العودة إليها إلا إذا غيروا ما بأنفسهم تغييرا جذريا، يستجيب لمقتضيات العودة إلى حلبة التاريخ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11].

ولكي يغير مسلم ما بعد الموحدين نفسه، ويجدد طاقته الحيوية ويسترجع فاعليته، لا بد له من جملة شروط، تأتي على رأسها، التنمية الثقافية، الممهدة للنهضة.

ويرى ابن نبي، أن هذه التنمية الثقافية لا تتم إلا من خلال عملية التحديد السلبي والتحديد الإيجابي، أو لنقل بمنهج التخلية والتحلية، كما سبق بيانه.

والسؤال المطروح هنا هو: ماذا يجب على مسلم ما بعد الموحدين أن يتخلى عنه؟ وماذا يجب عليه أن يتخلى به؟

وانطلاقاً من تحديده بأن مشكلة المسلمين هي "مشكلة حضارة" بالأساس، وليست مشكلة عقيدة أو قيم أخلاقية، ركز ابن نبي، في عملية التنمية الثقافية، على الأمراض الحضارية التي يجب على المسلمين أن يتخلوا عنها، وعلى القيم الحضارية الدافعة للنهضة، التي لا بد لهم من التحلي بها. وأبين في الآتي، من منظور ابن نبي، ما يجب على المسلم أن يتخلى عنه أي التخلية الحضارية، وما ينبغي له أن يتحلى به أي التحلية الحضارية.

2-1- التخلية الحضارية

- القابلية للاستعمار: ركز ابن نبي كثيراً، في كتاباته ومحاضراته، على مسألة " القابلية للاستعمار"، التي اشتهر بها، باعتبارها مرضاً نفسياً، يجب التخلص منه، لأن "الاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم، بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار والتي تمكّن له في أرضها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهلها للاستعمار."¹

ويضيف قائلاً: "إن القضية عندنا منوطّة أولاً بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشثيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين (أَخْرِجُوا الْمُسْتَعْمِرَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَخْرُجْ مِنْ أَرْضِكُمْ)."²

- اللافاعلية: التخلص من اللافاعلية شرط أساس في نجاعة الأعمال، ولا يتحقق ذلك إلا بالربط الصحيح بين الأعمال وأهدافها. يقول ابن نبي: "إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من (اللافاعلية) في أعمالنا إذ يذهب جزء كبير منها في العبث، والمحاولات الهائلة.

وإذا ما أردنا حصر هذه القضية فإننا نرى سببها الأصيل في افتقارنا الضوابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها: فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وإن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله وفي كل خطوة نخطوها."³

- الشئئية والتكديس: حذر ابن نبي من مرضي الشئئية والتكديس، وهما من سمات المجتمع المتخلف، الذي ولى وجهه شطر عالم الأشياء، وأدار ظهره لعالم الأفكار، ظنا منه أن الحضارة تبنى بتكديس منتجاتها، في حين أن العكس هو الصحيح، فالحضارة هي التي تلد منتجاتها.

يقول ابن نبي: "إن علينا أن نكون حضارة، أي أن نبني لا أن نكدس. فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس ولنا في أمم معاصرة أسوة حسنة."⁴

¹ المرجع نفسه، ص 33.

² المرجع نفسه، ص 158-159.

³ المرجع نفسه، ص 102-103.

⁴ مالك بن نبي، تأملات، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 169.

- ذهان السهولة وذهان الاستحالة: وهما مرضان يعيقان عملية الإنجاز، لأن صاحبهما يرى الأمور، إما سهلة فلا تستحق بذل الجهد المطلوب لإنجازها، وإما مستحيلة فلا داعي للخوض فيها.

وعن هذين المرضين يقول ابن نبي: "فلكل نشاط عملي علاقة بالفكر، فمتى انعدمت هذه العلاقة عمي النشاط واضطرب، وأصبح جهدا بلا دافع. وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم، فإن النشاط يصبح مختلا أو مستحيلا، وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذاتيا، هو في عرف الحقيقة خيانة لطبيعتها، وغمط لأهميتها، سواء كان غلوا في تقويمها أم خطأ من قيمتها.

وهذان الشكلان من أشكال الخيانة يتمثلان في العالم الإسلامي الحديث في صورة نوعين من (الذهان Psychose): فإما أن يتمثل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها سهلة، وهو قائد ولا شك إلى نشاط أعمى، [....]، وإما أن يأخذ صورة النظر إليها على أنها مستحيلة فيصاب بالشلل وهو ما يحدث غالبا في شمال افريقية.¹

- الذرية (Atomisme): هي سمة من سمات عصر ما بعد الموحدين، حيث يميل الفرد إلى تجزئة المشكلة، واعتبار القضايا والأحداث مجزأة لا يربطها قانون، ولا يسلك سبيل التكامل بانتهاج التركيب المتآلف (Synthèse).

يقول ابن نبي: "فالزعة الذرية هي قفزة البرغوث من تفصيل إلى تفصيل؛ بحيث لا تسمح أن ترى في مجموعة من التفاصيل المعطاة وضعا يبرز بالتحديد مشكلة مرحلية من الاطراد الثوري."²

- الثثرة: من معوقات النهضة الثثرة وكثرة الأقوال وضالة الأعمال. يقول ابن نبي: "أن الثثرة تكثر كلما قل النشاط والحركة، إذ حيثما يسود الكلام تبطن الحركة."³

ويضيف: "أن ميزانية التاريخ ليست رصيذاً من الكلام ومن أعداد الكلمات، بل هي كتل من النشاط المادي، ومن الأفكار التي لها كثافة الواقع ووزنه. وهذه الميزانيات المكونة من صنوف النشاط الإيجابي هي في الحقيقة ميزانيات من القيم الثقافية تقوم على فصول الثقافة الأربعة: منهجها الأخلاقي، وذوقها الجمالي، وفنها الصناعي، ومنطقها العملي."⁴

2-2- التحلية الحضارية

التحديد الإيجابي أو التحلية الحضارية، في نظر ابن نبي، تتم بالإضافة إلى التحلي بالقيم الثقافية الأربعة، المذكورة آنفا، على ما يلي:

- تغيير النفس: التاريخ لا يتغير، والنهضة لا تقوم، والتنمية لا تتحقق، والمشاريع الكبرى لا تنجز، إلا بتغيير النفس والمجتمع، وفقا للآية الكريمة: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد: 11]، التي

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 88

² مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 128

³ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 153

⁴ المرجع نفسه، ص 153

جعلها ابن نبي شعارا لمشروعه الحضاري، واستل منها مقولته الشهيرة: "وانها لشرعة السماء: غير نفسك تغير التاريخ!"¹

- الفاعلية والمنطق العملي: ركز ابن نبي كثيرا على هذين المفهومين، باعتبارهما من السمات الأساسية، التي يجب أن يتحلى بهما إنسان النهضة.

فعن الفعالية ومبرراتها يقول: "إن تطورات العالم الإسلامي، منذ الحرب العالمية الثانية تضع نخبته في مختبر التاريخ، تفحص فيه إمكانياتهم في مواجهة الحشد من المشكلات، وهي تتطلب قدرة في التصور ومهارة في التطبيق من أجل حلها.

من هنا يفتح لعالم الاجتماع المهتم بشؤون العالم الإسلامي، في مرحلة الاستقلال، مجال لا يخص الباحث فحسب، وهو يدرس الجانب النظري؛ بل يخص الذي يمارس العمل السياسي أيضا. فالعلم الذي لا يترجمه عمل، يظل ترفا لا مكان له، في وطن ما يزال فقيرا في الوسائل والأطر.

ففي هذه المرحلة بالذات، لا بد للاهتمامات أن تتركز في البلاد الإسلامية حول مفهوم الفعالية، وعلى الخصوص في مجال التسيير ووسائله: الأداة والدولة."²

وعن المنطق العملي، وحتى لا يلتبس الأمر حول المقصود منه، يوضح: "لسنا نعني بالمنطق العملي ذلك الشيء الذي دونت أصوله، ووضعت قواعده منذ أرسطو، وإنما نعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئا، بغير مقياس يستمد معاييره من واقع الوسط الاجتماعي، وما يشتمل عليه من إمكانيات: إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محددة، غير أنه من النادر جدا أن نعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة.."³

ثم يبين أهميته وحاجتنا إليه: "ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق العملي في حياتنا، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فشيء يكاد يكون معدوما."⁴

ويرد فائلا: "ألم نقل: إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا بل أكثر من ذلك. فهو أحيانا يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا، ويقولون كلاما منطقيًا من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط."⁵

- تقديم الواجبات على الحقوق: يؤكد ابن نبي "أن الإقلاع الحضاري واطراد حركة البناء، مرتبط بوضع نفسي واجتماعي تقدم فيه الواجبات على الحقوق من جهة، بل وتتفوق عليه من جهة أخرى، وأي إخلال

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 35.

² مالك بن نبي، بين رشاد والتهيه، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 39

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 102

⁴ المرجع نفسه، ص 102

⁵ المرجع نفسه، ص 103

بهذه المعادلة يؤدي حتما الى ارباك عملية البناء وارتكاسها. فالواجب الفاضل هو امانة التقدم الخلفي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه الى المجد.¹

ولهذا "فالسيسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بأن تضرب له على نعمة حقوقه، ليست سياسة، وإنما هي خرافة، أو هي تلصص في الظلام."²

"وبرمجة حركة المجتمع على محور الواجبات لا تتأتى إلا بتحويل عميق لعادات وطبائع الناس، أي بتحويل ثقافي شامل تنجزه جهات كثيرة في المجتمع."³

- العودة للقيم الإسلامية: استشهد ابن نبي، في كتابه "ميلاد مجتمع"، أربع مرات بالمقولة المأثورة: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"⁴. والتي يقصد بها أن طريق التجديد الحضاري، يمر حتما بالعودة الصادقة للقيم الإسلامية الأصيلة، والتحلي بها، تلك القيم التي ارتقت بالإنسان من الجاهلية إلى الإسلام، ومن البداوة إلى الحضارة.

والعودة للقيم الإسلامية، هي العودة إلى فاعلية العقيدة وإشعاعها الاجتماعي، لأن "المسلم حتى مسلم ما بعد الموحدين، لم يتخل مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمنا ، وبعبارة أدق ظل مؤمنا متدينا، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها ، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي، فأصبحت عقيدة جذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل الصلات بوسطه الاجتماعي، وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملا به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة."⁵

وصفوة القول: إن التخلية والتحلية للتنمية الثقافية، عند مالك بن نبي، ليست مجرد أوامر "تخلي وتحلي"، لكنها خلاصة لدراسة عميقة، في إطار منهجه المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات، لأوضاع إنسان ما بعد الموحدين، وتحديد ما يجب عليه أن يتخلى عنه من أمراض ثقافية مكبلية ومميتة، وما ينبغي له التحلي به من القيم الحضارية المحفزة والدافعة للنهضة (الشكل 2).

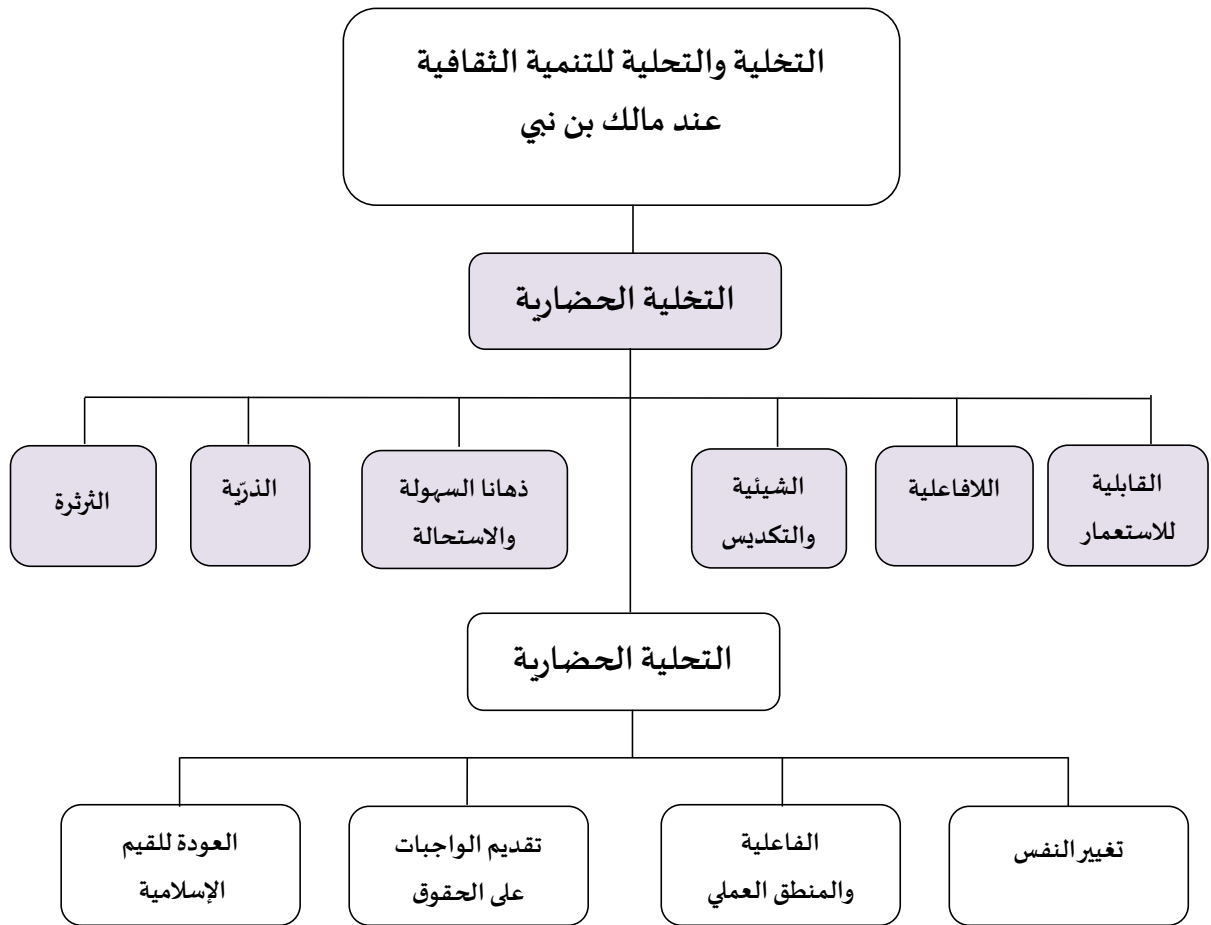
¹ الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 114.

² مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 143

³ الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 114.

⁴ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434 هـ / 2013 م، ص 7، 76 و 81 و 114.

⁵ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 54.



الشكل 2- التخلية والتحلية للتنمية الثقافية عند مالك بن نبي

خاتمة

توصلت الدراسة للنتائج التالية:

- يحتل الإنسان، في استراتيجية النهوض الحضاري لدى مالك بن نبي، مكانا مركزيا، لأنه "إذا تحرك الإنسان تحرك التاريخ"،

- التنمية الثقافية من أهم الوسائل التربوية، عند ابن نبي، في النهوض بإنسان ما بعد الموحدين، والتعافي

من التقهقر الحضاري المزمّن للأمة.

- المسألة الثقافية هي المدخل الضروري لعملية النهوض الحضاري، باعتبار أن الفعل الحضاري هو في الأساس فعل ثقافي.

- المنهج المتميز، الذي تناول به ابن نبي "مشكلات الحضارة"، هو منهج مركب بمقاربات متعددة التخصصات، وظف فيه مناهج البحث العلمي المعروفة، بالإضافة إلى المنهج السنني ومنهج التخلية والتحلية، بمقاربات من العلوم الإسلامية، والإنسانية والاجتماعية، والعلوم الأساسية وعلوم المادة والحياة، بأسلوب جمع فيه بين النظرة السننية الشاملة والدقة العلمية والعمق الفلسفي والواقعية والموضوعية.

- التخلية والتحلية من الأساليب التربوية الأساسية التي اعتمدها القرآن الكريم، في تغيير وإصلاح النفوس، وهي منهج النبي ﷺ الذي سلكه في تربية أصحابه رضي الله عنهم.

- النهضة لا تبنى إلا بفكر جديد، ولا يتأتى ذلك إلا بتحديدين: الأول: التحديد السلبي الذي يمثل الانفصال عن رواسب الماضي السلبية، الممثلة في الأنساق الثقافية والاجتماعية العائقة لكل نهضة. والثاني: التحديد الإيجابي الذي يمثل الاتصال بمقتضيات المستقبل الإيجابية اللازمة لكل نهضة حضارية.

- التحديد السلبي (الانفصال) والتحديد الإيجابي (الاتصال) يتوافقان تماما مع مفهوم التخلية والتحلية في مجال التنمية الثقافية، لكن بتعبير آخر ليس إلا!

- منهج التخلية والتحلية من المناهج الأساسية في تغيير النفس وتنميتها، يعمد إليه الأنبياء والمرسلون، وأهل السلوك والطريقة، والمصلحون، والمفكرون، والأطباء النفسانيون، والمربون، وغيرهم، مع تباين وتنوع في وسائلهم وطرقهم، كل بحسب مقصده ومبتغاه.

- ارتقى النبي ﷺ بمنهج التخلية والتحلية، بمختلف وسائله المناسبة، بالإنسان من الجاهلية إلى الإسلام، ومن البداوة إلى الحضارة.

- وظف مالك بن نبي منهج التخلية والتحلية (التحديد السلبي والتحديد الإيجابي)، بمختلف وسائله المناسبة (التخلية الحضارية والتحلية الحضارية)، في التنمية الثقافية، من أجل الارتقاء بإنسان ما بعد الموحدين إلى إنسان النهضة.

- التخلية الحضارية هي: التخلي عن القابلية للاستعمار، والفاعلية، والشئئية والتكديس، وذهاني السهولة والاستحالة، والذرية، والثروة. والتحلية الحضارية هي: التحلي بتغيير النفس، والفاعلية والمنطق العملي، وتقديم الواجبات على الحقوق، والعودة للقيم الإسلامية. والتخلية تتمان في إطار منهجه المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات.

قائمة المصادر والمراجع

- 1-أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ربانية لا رهبانية، ط 1 ، دار القلم دمشق، 1421هـ-2000م.
- 2-آرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي لترجمة، القاهرة، الجزء 1، 2011م،
- 2-حسن صادق حسن عبد الله، السلوك الإداري ومرتكزات التنمية في الإسلام، ط 2 ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1992م.
- 3-دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: د. منير السعيداني، ط 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007م.
- 4-طه عابدين وآخرون، التزكية بالقرآن الكريم: مفهومها، وأهميتها، وأركانها، ط 1، معالم الهدى للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية، 1439هـ-2017م.
- 5-الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط 1، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.
- 6-عبد العزيز بن عثمان التويجري، التنمية الثقافية من منظور إسلامي، ط 2، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو، 1436هـ/2015م.
- 7-عبد الفتاح أبو غدة، الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم، ط 1، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب-سوريا، 1417 هـ /1996م.
- 8-عبد الله العويس، مالك بن نبي حياته وفكره، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2012.
- ماجد عرسان الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها، ط 1، عالم الكتب، بيروت-لبنان، 1416هـ-1995م.
- 9-مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 2013.
- 10-مالك بن نبي، بين رشاد والتيه، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.
- 11-مالك بن نبي، تأملات، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م .
- 12-مالك بن نبي، حديث غي البناء الجديد، المكتبة العصرية، بدون تاريخ.
- 13-مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 1434هـ/2013م .
- 14-مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م .
- 15-مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م .
- 16-مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر

1434هـ/2013م .

17-مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م .

18-محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، ط 1، دار الفكر، دمشق-سوريا، 1428هـ/2007م.

19-محمد شفيق، البحث العلمي الخطوات المنهجية لإعداد البحوث الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998م .

20-مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري، ط 2، دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2016م.

21-نور الدين مسعودان، مالك بن نبي حياته وآثاره شهادات ومواقف، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ.